الفصل السابع

القاهرة.. الطابع النوبى

والنوبيون طبقة أخرى ليس لها طابع غالب على المجتمع فى القاهرة مع أن آثار بلادهم هى محل اهتمام السياح، ووسامة ملامحهم تستأثر بشغف الفنانين والمصورين الفوتوغرافيين. وليس هناك شارع معين تقصده فتجد عنده النوبيين، بل هم يشاركون المهاجرين من القرى سكنى حى قد لا تلحظه عين القاطن العابر فى فندق هيلتون أو شبرد، وأنا نفسى لم أنتبه لوجود هذا الحى العجيب إلا حين كنت أقيم فى بنسيون فى الطابق الثالث عشر من عمارة تكاد تكون من ناطحات السحاب، فقد استيقظت ذات صباح على صياح ديكة

وثغاء غنم، فلما خرجت إلى الشرفة وأطللت منها رأيت قرية متناثرة على الأسطح المستوية للمبانى المجاورة، إذ هى تزيد فى ارتفاعها عن ستة طوابق، وتتكاثر فيها. تقليداً للفن الحديث زخارف من المعدن والجص أى أن المنطقة تقابل شارع اكسفورد فى لندن. وجدت من تحتى بط يبطبط، وأغناماً تلوك حزماً من البرسيم، ونساء فى ملابس سود تمد أيديهن إلى أقفاص الدواجن لتخرج بفطور عيالهن (والبيض فى القاهرة بيض بدارى الدجاج فيلزمك أربع منها لكى تصنع لك عجة). فى كل قرية من هذه القرى المتناثرة على الأسطح يعيش البوابون - وهم فى مساكن القاهرة من علاماتها المتميزة - فإنك لابد واجد عند مدخل كل عمارة بواباً - واحدا على الأقل - جالسا على دكة، يلاحق بنظره الداخلين والخارجين، وفى أغلب الاحيان يكون مع رفاق له، والنوبيون يحبون المؤانسة. إنهم يأتون من هذا الوادى الضيق ما بين أسوان وشمال السودان، وقراهم تمتد طولاً، النيل هو شارعهم الرئيسى، بيوتهم فسيحة، نظيفة، طليقة الهواء، جدرانها مزينة برسوم من صنع أيديهم، ما من باب عليه

قفل، فليس هناك سرقة، وليس هناك زنى، ويعترف القاهريون بأمانة النوبيين ويرونها سبب استخدامهم بوابين. ومع كل هذا فقد احتجت الحكومة السودانية لدى منتجى السينما المصريين لأنهم يظهرون الشخصيات ذوى السحنة السمراء فى دور الخدم دائماً ولم يظهروهم سادة مطلقاً.

وتتصف القاهرة بقدر عظيم من التسامح. قد يحدث اشتباك بين خواجه ومسلم وبين مصرى حنطى اللون وآخر من أبناء السود، ولكن لا يكون هذا الاشتباك بسبب نفور جنس من جنس. وبعض دروب القاهرة تشبه حى هارلم فى نيويورك، ولكن بدون حزازاته، وإن كان السودانيون يتجمعون فى مقاه خاصة بهم فليس مرجع ذلك أنهم معزولون عن المجتمع، بل إلى اختيارهم هم أنفسهم لهذه المقاهى، شأن المقهى التى تجدها فى كل مدينة وقرية كبيرة فى وادى النيل فيها أبناء القاهرة المغتربون عنها.